الحاضرة السادسة

ثالثاً - علم التاريخ:

يقول ابن خلدون مؤسس فلسفة التاريخ: «اعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها مجرد النقل ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فرما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق»⁽ⁱ⁾.

وفيما يأتي نستعرض مراحل تطور هذا العلم؛ ونبدأ مع مرحلة التدوين الأولى والتي امتدت حتى مطلع القرن الثاني الهجري، وفيها بدأت عملية التدوين مبكرة جداً نقلاً عن الشفاه ومن السجلات (كالوثائق وبعض الصحف). وعملية التدوين هذه يرقى بعضها إلى العهد النبوي والخلافة الراشدة، لكنها ما اتسعت ولا وضحت إلا في العصر الأموي (40-132هـ / 749م)، وظهرت فيها عدد من الاتجاهات؛ فبعضها للسيرة النبوية، وبعضها للأنساب، وبعضها لأخبار الفتوحات ... غير أن الاهتمام كان متوجهاً بصورة خاصة إلى مواضيع محددة من السيرة، وبرز فيها من الرعيل الأول: عبد الله بن عباس (ت 78هـ) ثم أبان بن عثمان بن عفان (توفي ما بين 95-105هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (ت 94هـ / 722م) أول من ألف كتاباً في «المغازي».

ثم تأتي مرحلة جمع الأخبار والروايات التاريخية في كتب ذات موضوع واحد، إذ اهتم الأخباريون خلالها بجمع أخبار الأحداث المختلفة والمواضيع المتنوعة، ومن جميع الأفواه والرواة، كل منها على حدة، وفي كتاب يختص بموضوع واحد لا يتجاوز إلى غيره.

ومن أبرز الأخباريين هنا: أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي (ت 157هـ / 773م). ألف ما يقرب من (33) كتاباً في موضوعات مختلفة من التاريخ الإسلامي، منها: كتاب الردة - كتاب فتوح الشام - فتوح العراق - حرب صفين - الجمل - مقتل علي - مقتل الحسين - الشورى - الأزارقة. وسيف بن عمر الأسدي التميمي الكوفي (ت حوالي 180هـ / 796م). كان معاصراً لأبي مخنف، واشتهر وتوفي ببغداد. وله من الكتب: الردة، الفتوح، الفتنة، واقعة الجمل.

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي الكوفي النسابة (ت 204هـ / 819م). له كتب كثيرة تبلغ نحو (150) كتاباً في مختلف المواضيع والأحداث التاريخية في الجاهلية والإسلام، ذكرها الندم وقسمها إلى أقسام بحسب موضوعاتها. وقد اتصل هشام الكلبي بالخليفة المأمون وصنّف له كتاب «الفريد» في الأنساب، واتصل بجعفر بن يحيى البرمكي وألف له كتاب «الملوكي» في الأنساب أيضاً⁽ⁱⁱ⁾.

ثم تأتي مرحلة التأريخ على الأساس الزمني في إطار وحدة الأمة والتاريخ العالمي؛ فعلى الرغم من وجود ذلك الجمع التوزعي المفرق لمواضيع التاريخ في المرحلة السابقة «مرحلة الأخباري» فقد ظهر خلالها وفي وقت مبكر مطالع مرحلة جديدة، يمكن تسميتها بمرحلة تدوين التاريخ على الأساس الزمني المتسلسل، وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد. وقد امتدت هذه المرحلة إلى نهاية القرن الثالث الهجري حتى استقرت وتوطدت، فتوطد بها علم التأريخ الإسلامي ومناهجه في التدوين.

وكان من أبرز الممثلين للتطور الجديد من العراقيين: خليفة بن خياط العصفري البصري (ت 240هـ/ 854م). له كتاب «التاريخ». وهو أقدم كتاب في أيدنا لتاريخ الإسلام العام ومرتب على المنهج الحولي، وفيه من الاهتمامات التاريخية ما لا نجد عند غيره، ولعله كان المثال الذي احتذاه المؤرخ الكبير ابن جرير الطبري. ولقد اعتمد خليفة بن خياط في كتابه هذا على عدد كبير من مرويات الأخباريين الأوائل كابن إسحق وهشام الكلبي والمدائني وغيرهم. وتظهر أهميته البالغة في دقته وحسن انتقاء مؤلفه لرواياته بأسانيدها وفق منهج المحدثين الذين ينتمي خليفة بن خياط إلى مدرستهم.

وابن قتيبة: عبد الله بن مسلم البغدادي (ت 276هـ/ 889م). إمام في اللغة والأدب والأخبار وعلوم القرآن والحديث، وله عدد من المؤلفات التاريخية تمثل بالنسبة للتأليف التاريخي مرحلة من النظرة العالمية والحضارية لم يعرفها المؤلفون السابقون إلا جزئياً، وإن تكن محاولة محدودة بالقدر الذي سمحت به معارف ابن قتيبة وعصره ومواهبه، وأهم هذه المؤلفات كتاب «المعارف»، وهو أشبه بدائرة معارف تترجح فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية. وله أيضاً كتاب «عيون الأخبار» يحتوي على الكثير من عناصر الحضارة الإسلامية.

والبلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت 279هـ/ 892م) ندم الخليفة العباسي المتوكل. له كتاب «أنساب الأشراف» وهو كتاب عام للتاريخ الإسلامي في إطار الأنساب، لا الزمن التاريخي، بمعنى أنه ليس مؤلفاً تاريخياً متصل الحلقات، وإنما تجمع خطته بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب، ويظهر فيه تلاقي طريقة الخبر بالأنساب في الطبقات بالتاريخ، وتلاقي طريقة الرواية المنفصلة والخبر المفرد مع الرواية التاريخية المتصلة والتاريخ المطرد، غير أنه في النهاية يعبر عن فكرة وحدة الأمة واتصال خبراتها في التاريخ الإسلامي.

والطبري: محمد بن جرير الطبري البغدادي (ت 310هـ/ 922م). عَلم معروف من أعلام التاريخ الإسلامي وغيره من العلوم، بلغ في علمه بالروايات التاريخية منزلة لا تبارى، ويمثل كتابه «تاريخ الرسل والملوك» قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند المسلمين في فترة التكوين، وحصاداً ناجحاً لكل المحاولات السابقة عليه، وصياغة تركيبية - في إطار المنهج الحولي - لكل التطورات والأنماط التاريخية التي حاولها مؤرخون قبل الطبري في مجال التدوين التاريخي: كابن إسحق وابن هشام والواقدي والمدائني وابن سعد والبلاذري، بل وفاقهم كثيراً من حيث الشمول والإحاطة ووفرة المادة وغزارتها. كما أن أهميته تكمن أيضاً في أنه «يعبر عن فكرتين أساسيتين في التاريخ هما: وحدة الرسالات من جهة، وأهمية خيرات الأمة الإسلامية واتصالها على الزمن من جهة أخرى»: إذ يتناول التاريخ العام منذ الخليفة وحتى نهاية سنة 302هـ/ 914م⁽ⁱⁱⁱ⁾.

وأما أهم المؤلفات في الفنون التاريخية؛ ففي السيرة النبوية بدأ التدوين التاريخي في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك من الأمور الطبيعية، لأنها الموطن الأصلي للدعوة الإسلامية، ومنها انتشر الإسلام، فاكتملت السيرة ثوباً مدنياً، وطبعت بالطابع الذي تميز به علماء الحجاز، وهو ميلهم إلى رواية الحديث النبوي، ومن هنا أخذت السيرة شكل الرواية الحديثة المجردة، وأصبحت جزءاً من الحديث نشأت وتطورت بنشئته وتطوره، وظلت الدعامة الأساسية لتكوين المادة التاريخية لها.

وبهجرة محمد بن إسحق إلى بغداد وإهدائه «مغازيه» للخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (136-158هـ / 753-774م)، كما هاجر إليها أبو معشر السندي، استدعاه المهدي، وانتشرت بها «مغازيه». ومنذ ذلك الحين؛ ظهر منافسون لعلماء السيرة المدنيين، ظهوروا في بغداد والكوفة والبصرة، بل في مصر كذلك، وهم وإن كانوا قد تأثروا بسيرة ابن إسحق المستمدة من روحية أهل المدينة (الميالة إلى الرواية والنقل) فإن الأمور سرعان ما تبدلت وظهرت روح النقد الميالة إلى النقد.

ولقد لاقت سيرة ابن إسحق رواجاً واسعاً في بغداد: فكان من أوثق رواة وأشهرهم: زياد بن عبد الله بن طفيل العامري البكائي الكوفي البغدادي (ت 183هـ / 799م). ثم رواها عن البكائي كثيرون، أبرزهم عبد الملك بن هشام السدوسي البصري نزيل مصر (ت 213هـ / 828م)، وقد قام باختصارها وترتيبها فُنسبت إليه، وصارت لا تعرف إلا بسيرة ابن هشام، وأصبح للمصريين بها فرط غرام وكثرة رواية، وعنه نقلت إلى سائر الآفاق كما يقول القفطي، ولاقت رواجاً كبيراً في الأندلس.

وكان من أشهر المؤلفين في المغازي والسير اثنان: الواقدي (ت 207هـ / 822م) وابن سعد (ت 230هـ / 845م)، وهما - وإن كانا ممثلين لمدرسة المدينة في الأصل - فإنهما يمثلان نهاية تطورها وقمتها في بغداد / العراق، حيث قضى الواقدي أعوامه الثلاثين الأخيرة في بغداد، وانتشرت بها مؤلفاته في السيرة. وكان ابن سعد كاتباً له وعلى صلة قوية به، وعليه اعتمدت في تأليف السيرة في القسم الأول من كتابه «الطبقات»، وعاش مدة طويلة في بغداد، وكانت وفاته بها^(iv).

وبرز في التاريخ العام نفظويه إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي الواسطي البغدادي (ت 323هـ / 934م). وهو عالم في اللغة والنحو، وله كتاب «التاريخ»، قال عنه المسعودي: «محمشو من ملاحظات كتب الخاصة، مملوء من فوائد السادة». وقد اقتبس منه الخطيب البغدادي في مواضع كثيرة من كتابه «تاريخ بغداد» ويبدو من بعض المقتطفات التي نقلها الخطيب أن هذا «التاريخ» مرتب على السنين، كما أنه يقتصر على الفترة الإسلامية: حيث تناول تلك المقتطفات أخبار معظم الخلفاء العباسيين حتى زمن المقتدر (295-320هـ / 907-932م)، كما تناولت خطط بغداد وتاريخ وفيات وبعض أخبار الأمراء والوزراء والولاة والقادة والقضاة والكتاب والعلماء والشعراء والأدباء.

و المسعودي: علي بن الحسين المسعودي البغدادي (ت 345هـ / 956م). له سلسلة من التواريخ الخصبية، يأتي في مطلعها تاريخه الأكبر «أخبار الزمان ومن أباده الحدثنان من الأمم الماضية والأجيال الحالية والممالك الدائرة» في حوالي ثلاثين مجلداً، اختصره في «الكتاب الأوسط»، ثم عمد إلى الأخير فاختصره في «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهذا أيضاً اختصره في «التنبيه والأشرف».

ولو أخذنا كتابه «مروج الذهب» نموذجاً لمؤلفاته التاريخية لوجدنا أنه في هذا الكتاب وضع تاريخاً عالمياً في (132) باباً، في أربعة أجزاء^(v).

أما التواريخ المحلية (تواريخ المدن) فبرز كتاب تاريخ بغداد، لأحمد بن أبي طاهر طيفور، مروزي الأصل، البغدادي (ت 280هـ / 893م)، عالج فيه خططها وتاريخها السياسي. وهذا الكتاب - الذي وصل إلى الأندلس - ربما يعد أول كتاب في سلسلة تاريخ مدينة السلام، وفي تواريخ المدن عامة. وكتاب «فضائل بغداد وصفتها» تأليف يزيدجرد بن مهندار الكسروي بن اسفنديار من أهل المئة الثالثة للهجرة في أيام المعتضد (279-289هـ)، وهو يعنى بخصائص بغداد، وذكر عدد سككها وحماماتها وما يحتاج إليه في كل يوم من الأقوات والأموال.

وأعان النسّابون الدراسات التاريخية بما قدموا - مع الأنساب - من معلومات تاريخية عن أصحابها، وبعبارة أخرى حين انصرف النسّابون إلى جمع مادتهم وتسجيلها جمعوا معها ومن حولها الكثير من المادة التاريخية التي دخلت التاريخ من بابه الواسع.

وكان من الطبيعي أن يكون النسّابون الأول هم من الأخباريين الأوائل، مثل محمد بن السائب الكلبي الكوفي (ت 146هـ / 763م) وابنه هشام (ت 204هـ / 819م) - وهو من أشهر النسّابين، وله تصانيف كثيرة في الأنساب - وأبو اليقظان النسابة (190هـ / 808م) والهيثم بن عدي (ت 207هـ / 822م). ثم ظهر بعد هؤلاء: مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيرى المدني نزيل بغداد (ت 236هـ / 850م). عالم بأيام العرب، وأفقه قرشي في علم النسب، أخذه عن الواقدي، وله كتابان فيه هما: «النسب الكبير» و«نسب قريش»، الذي أعطى فيه أخباراً مهمة ومفصلة عن بعض الشخصيات الهامة من جاهليين وإسلاميين.

والزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب الزبيرى المدني نزيل بغداد (ت بمكة 256هـ / 869م). أخباري نسابة، ومن أبرز كتبه: «نسب قريش وأخبارها» قال عنه ابن خلكان: «جمع فيه شيئاً كثيراً، وعليه معول الناس في معرفة نسب القرشيين»^(vi).

وتمثل كتب التراجم قسماً مهماً من الكتب التاريخية في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، وهذه الكتب ظهرت منذ بواكير التدوين عند المسلمين، وهي ضخمة في كميتها، متنوعة في مادتها. وقد نشط علماء الحديث دون سواهم - ولغرض توثيق الروايات الحديثية - في دراسة أحوال رجال الحديث (الرواة) من حيث مواليدهم ووفياتهم وأسمائهم وأنسابهم وألقابهم وميولهم العقائدية، وأوردوا آراء العلماء الثقات فيهم تجريحاً أو تعديلاً.

ومن هذه التراجم:

في الخلفاء والوزراء: كتاب «أخبار الخلفاء الكبير» للمدائني البغدادي (225هـ / 839م). وكتاب «تاريخ الخلفاء» لمحمد بن حبيب النسابة البغدادي (ت 245هـ / 859م). وصنّف الوزير محمد بن داود بن الجراح البغدادي (ت 296هـ / 908م) كتاب «الوزراء». وفي الكتاب والحجاب والقضاة: وقد أرّخ الكتاب بدورهم لأبناء صناعتهم، فمنهم: محمد بن أحمد بن الحسين بن حرون

البغدادى (من مطالع القرن الرابع الهجرى)، له كتاب «الكتاب». وصنّف أبو عبيدة معمر بن المثنى البصرى نزيل بغداد (ت208هـ / 823م) كتابه «قضاة البصرة». وفي الفقهاء والنحاة واللغويين: وفي أخبار الفقهاء (عامّة) صنّف كل من الواقدي نزيل بغداد (توفى 207هـ / 822م)، والهيثم بن عدي الكوفي البغدادي (ت 206هـ / 821م). وعن النحاة واللغويين كتاب: «طبقات النحويين البصريين وأخبارهم» لمحمد بن يزيد المبرد البصرى نزيل بغداد (ت285هـ / 898م)^(vii).

-
- (المقدمة: ابن خلدون، ص 9.i)
- (ii) الفهرست: النديم، ص 134 - 164. معجم الأدباء: الحموي، ج 3، ص 26 - 32، ج 5، ص 89 - 101، ج 19، ص 310. الحضارة الإسلامية: أبو عبيدة، ج 1، ص 232 - 236. التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى، ج 1، ص 99، 100، 244 - 249.
- (iii) النديم: الفهرست، ص 134 - 164. معجم الأدباء: الحموي، ج 3، ص 26 - 32، ج 5، ص 89 - 101، ج 19، ص 310. الحضارة الإسلامية: أبو عبيدة، ج 1، ص 227 - 236. التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى، ج 1، ص 94 - 99، 100، 244 - 249.
- (iv) تاريخ بغداد: البغدادي، ج 1، ص 214 - 234، ج 3، ص 121، 326، ج 4، ص 89، ج 5، ص 321، ج 7، ص 277. الفهرست: النديم، ص 136، 145، 146. سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج 1، ص 664، ج 9، ص 5 - 7. معجم الأدباء: الحموي، ج 3، ص 26 - 32، ج 5، ص 89 - 101، ج 19، ص 310. الحضارة الإسلامية: أبو عبيدة، ج 1، ص 240 - 242.
- (v) تاريخ بغداد: البغدادي، ج 6، ص 128. الفهرست: النديم، ص 121. معجم الأدباء: الحموي، ج 1، ص 271. الحضارة الإسلامية: أبو عبيدة، ج 1، ص 242 - 245.
- (vi) النديم: الفهرست، ص 136 - 150. معجم الأدباء: الحموي، ج 14، ص 129 - 139، ج 17، ص 41 - 43، ج 18، ص 227 - 282. الحضارة الإسلامية: أبو عبيدة، ج 1، ص 246 - 250. التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى، ج 2، ص 15 - 39.
- (vii) النديم: الفهرست، ص 88، 144 - 186. معجم الأدباء: الحموي، ج 18، ص 109 - 282. الحضارة الإسلامية: أبو عبيدة، ج 1، ص 252 - 256.